رب ضـــارة نافعة .

كان السلام والرفاه يرفرفان على أرض الميعاد عام ١٩٣٨ عندما وقع طرف من هذه القصة فى ذلك الحين . فقد كانت المحاصيل وفيرة ، والمواشى ناعمة فى مراعيها وأشجار الحوامض غزيرة الإنتاج ، وكان سكان قرية « .. » يعيشون مطمئنين فى ذلك الخير العميم ، يساعد بعضهم بعضاً إذا جد مايدعو لذلك ، ولم يكونوا سكان قرية واحدة فحسب ، بل كانوا أفراد أسرة متآخية .

وفى أحد الأيام بينما كان الفلاحون يشتغلون فى مزارعهم كل فى حقله يزاول عمله بجد وإخلاص ، يمتاز به الفلاح الذى يملك قطعة من الأرض ، توارثها أباً عن جد فهى كقطعة من جسده ، إذ هجم حصان من مزرعة (عبد الجليل) على مزرعة جاره القريب (هاشم) فما كان من ذلك الحصان الجموح السريع الوثبات إلا أن أتلف كمية كبيرة من أشجار الفواكه الصغيرة ومن المحاصيل الزراعية التى كانت فى أدنى أدوار نموها وترعرعها ولم يهدأ إلا عند ماأوشك أن يقضى على جميع نباتات مزرعة (هاشم) وعند ذلك حل العداء محل الصداقة بين هاتين الأسرتين فقد أصر هاشم على قتل الحصان مهما كان نوعه ، ولكن صاحبه أبى ذلك لأنه كان حصاناً عربياً ممتازاً ، لايسهل الحصول على شبيه له وكان عبدالجليل يعلق عليه آمالا كباراً فكانت رغبته أن يدخله فى حلبات السباق عله يحصل من ذلك على مكسب وافر يغنيه عن أعمال الفلاحة الشاقة ، فطلب من جاره أن يعفيه من هذا الجزاء وهو على استعداد لأن يعطيه أى مبلغ يرغب فيه ولكن هذه المحاولات لم تجد فتيلا . وانقسمت القرية إلى قسمين كل يؤيد أحد الطرفين وأخذ العداء يشتد بين أفراد تلك القرية بصورة مزعجة فكثرت جرائم القتل والحرق ووسائل الانتقام المتعددة واستمرت حالة هذه القرية حوالى عشر سنوات لايسودها إلا القلق والاضطراب فحل الخراب والفوضى وتناقصت الحاصلات عاما بعد عام .

وبعد هذه المدة الطويلة بزغ فجر جديد على سماء القرية إذ تآمرت الدول القوية فقسمت فلسطين بين سكانها الحقيقيين والدخلاء ، وعند ذلك قام عرب فلسطين يدافعون عن حقوقهم فكانت حرب العصابات ضد اليهود وكانت قريتنا هذه بين مستعمرات يهودية فكانت محلا لهجوم الصهيونيين عليها

وكان هذا الهجوم على هذه القرية يتطلب منهم أن يكونوا صفاً واحداً ضد عدوهم لكى يستطيعوا أن يصدوا هجماته المتلاحقة ، وعند ذلك جمع (عمدة) القرية أعضاءها ونصحهم بأن يعودوا كما كانوا من قبل ، فوجدهم على استعداد كبير لأن يصطلحوا ويكونوا يداً واحدة ضد عدوهم . وقد تم له كل شىء على مايرام ، ورجعت القرية على ما كانت عليه من قبل . ورب ضارة نافعة ؟

يعقوب الحمر

قال مستدركا : إنك تتهمنى ياصديقى بتهمة أنا منها براء ولعل لك العذر فى ذلك فيظهر أنك لم تفهم ماأعنيه . فأنا لم أقل ذلك ولا يحق لى أن أقوله وإلا كنت محقاً فى أن تدعونى جاهلا بل وغبياً بليد التفكير جامد الشعور . . ولكن المجتمع — مجتمعنا — هو الذى ينكر علينا ذلك وهو العقبة الكاداء وحجر العثرة التى تقف فى طريقى وتحول بينى وبين إرضاء رغبتى واشباع ميولى لأن الموسيقى عندنا لايتولى أمرها ولا يقوم على شئونها إلا الـ (. . .) .

قلت : لو كنت مكانك ياصديقى لما القيت للمجتمع بالا أو أعرته أهمية لأن الذنب ذنبه هو وليس ذنبك أنت حينما نزل بالموسيقى من سمائها الرفيعة ومكانتها السامقة إلى المنزلة الوضيعة فحقر من شـــأنها وأوكل أمرها إلى هؤلاء الـ (. . .) الذين تحدثت عنهم . وإذا كان مجتمعك لايقدر هذا الفن العظيم حقيقة ولا ينزله من نفسه المنزلة اللائقة فأحر بك ألا تراعيه أو تداريه أو تكون له عبداً ليس لك إلا الطاعة العمياء التى لايوجهها تفكير ولا اتزان . فكن ياصديقى سيد نفسك واعمل مايحلو لك مادمت ترى أنك على صواب وأن غيرك على خطأ وما دمت ترى أنك لم تسىء إلى أحد أو تغمط له حقاً . ولا تعتقد أبداً بأن هؤلاء الذين قيدوك بهذه القيود الوهمية بأوفر منك ذكاء أو أصوب تفكيراً . ولو أن كل شاب منا خضع أو تردد أو أحجم عن الأقدام فى سبيل غاية يصبوا إليها لبقينا فى مكاننا جامدين لانتقدم خطوة إلى الأمام ولا نصل إلى هدف وويل لنا حينئذ من أنفسنا ، وويل لنا من غيرنا فقد حق علينا الخسران المبين إلى يوم الدين . .

على زكريا الانصارى